التَّأرِيخ بالشِّعْر في التّرَاث العَرَبيّ

أ.د.علاوة كوسة (*)

الملخص:

تُناقــشُ ورقتُنــا البحثيــةُ تفاصيلَ فَنّ شِــعرِيّ عَرَبِيّ مهجــور نَقدِيّا، ظلّ حِينًــا من تاريخ الشّــعرِيّةِ العَرَبيّةِ ظاهرةً شِــعرِيّةً ملحّةً، وتقليدًا تراثيًّا ســائدًا، وملمَحًا مُهمًّا في الحَضَارَة العَرَبيّــة، وهو « فَنّ التّأرِيخ بالشِّــعْر»، إذ تطرقنا إلى مفهومه وتحسّســنا جذوره في التّرَاث العَرَبيّ، لنقف عند التّأرِيخ بالشِّــعْر على شــواهد القُبُور والأضْرِحَة، مُبرِّزين أهمَّ الشّــعَرَاء العَرَب -قدامى ومُحدَثين- مِمَّن كتبوا في هذا الفَنّ الشّعرِيّ.

الكلمات المفتاحيّة:التَّأرِيخ – الشّعْر –التُّرَاث.

(*) المركز الجامعي (سي الحواس) بريكة- الجزائر.

مُقدّمَة:

ارتبـط التّأرِيـخ بالنُّصُـوص الشّـعرِيّة، التـي كانت مخازنَ آمنةً لأحداثِه وشَـخصِيّاتِه ومقولاتِه وأسراره، هـذه النّصُـوصُ التي تحيـل على حياة الأمم السّـابقة مهما اختلفت ثقافاتُهـا وديانـاتُها وأعراقُهـا، ويَخلُـد الشّـعْر بوصفه حامـلَ ألوية التّأرِيـخ السّرمديَّ إلى شرفـات الخلود، فما حدودُ التّداخـل بـين التّأرِيـخ والشـعر؟ وكيـف تتجلى مضمـراتُ التّاريخِـيّ في الخطاب الشّـعرِيّ؟ وما الدّوافع إلى توظيفِ التّأرِيخ واستحضارِ تفاصيلِه في الشّـعرِيّة العَرَبيّـة القَدِيمَـة والحَدِيثـة؟ ومـا اسـتراتيجياتُ اسـتحضارِ التّأرِيخ شِـعرِيّا؟ وما حدودُ المصْلحة بيْن التّأرِيخ وبين الشّعر؟ وما الذي يضيفه كلٌّ منهما إلى الآخر؟ ما القناعُ التّاريخِيّ؟ وكيف يُمكنُ أنْ يتقنَّعَ التّاريخِيّ بالشِّـعْريّ، وأنْ يتوسّلَ الشّعرِيُّ بالتَاريخِيّ كفلسفةٍ لخلودِ الذّات بحصانـةٍ تَاريخِيّـةٍ شِـعرِيّة؟ وما الـذي نقصده بـ(التَّأرِيخ الشّـعرِيّ أو التّأرِيخ بالجُمّل)؟ ومتى ظهر هـذا الفَنّ الشّـعرِيّ الطّارئ وأيـنَ؟ ولمَ لمْ يُعمّرْ طويلا؟ ولمَ خَلَتْ كتبُ تاريخِ الأدَبِ العَرَبيّ من «سيرتِه الأجناسيَّة» إلا ما نَدَر مِنها؟

جَعـل النَسَـق في «النُّقـوش الشّـعرِيّة العَرَبيّة على شواهد القُبُور والأضْرِحَة» من التّأرِيخ قناعا، وبأوجه شتى، تختلف عن مفهوم نمطيٍّ مستهلَك للقناع، مفاده أنْ « يمثّل القناعُ شَخصِيّةً تَاريخِيّة في الغالـب (يختبـئ الشّـاعِر وراءَهـا) ليعبّر عن موقـفٍ يُريده، أو ليُحاكمَ نَقائصَ العَصرِ الحَدِيث من خلالها »[1] ولكنّ القناعَ في الشّـعْر الشّاهديّ يُمثِّلُ أكثرَ من كونِهِ شَخصِيّة تَاريخِيّة، فقد يمثلُ: أحداثًا وتواريخَ وشَـخصِيّاتٍ، تَتَّخذُ منها الأنساقُ أقنعةً لها.

يُعـدّ التّأرِيخُ بالشِّـعْر (التَّأرِيخ الشّـعرِيّ) فنّا شِـعرِيًّا عَرَبِيًّا طارئًا في مسـار الشّـعرِيّة العَرَبيّة الطويـل والمتنـوع؛ وربما عَدَدناهُ سُـنّة شِـعرِيّة مهجـورة، ولا أدلّ على هذا الهَجْـرِ (غيرِ الجَميل) من أنَّ هذا الفَنَّ لم يُختصَّ ببحثٍ شافٍ أو بكتابٍ وافٍ في تأريـخِ الأدَبِ العَرَبـيّ ونقـدِه، ونادرًا ما يُشـيرُ إليهِ النّقادُ والباحثونَ وروّادُ تاريخِ الحَركةِ الأدَبيّة العَرَبيّة القَدِيمَة والحَدِيثة(*).

أ - مفهـومُ التّأرِيـخ الشّـعرِيّ (التَّأرِيـخ بالشِّعْر):

يـكادُ يتّفـقُ الباحثـون القلائـلُ في فَـنّ التّأرِيخ بالشِّـعْر، عـلى مفهـومٍ واحِدٍ لـه، حيـث التّأرِيخ بالشِّـعْر هو أنْ يُؤرِّخَ الشّـاعِر في نهايةِ القصيدةِ

---

(١) إحسـان عباس، اتجاهات الشِّـعْر العَرَبـيّ المُعَاصِر، ط٣، دار الشَّرق للنَّشرِ والتَّوزيع، عمان، ٢٠٠١، ص ١٢١،

(*)بعضُ النقاد الذين تطرقوا لهذا الفن الشِعرِيّ،

- مصطفى صادق الرّافعي، تاريخ آداب العَرَب (ج٢).

إميـل بديـع يعقـوب، المعجم المفصـل في علـم العروض والقافية وفنون الشعر.

طه وادي، الشِّـعْر والشُّـعَرَاء المجهولون في القرن التاسع عشر.

مارون عبود، رواد النهضة الحديثة.

- طـارق فايـز العجـاوى، تاريـخ التأريـخ في الشِّـعْر العَرَبيّ،موقع دنيا الوطن،

https://pulpit.alwatanvoice.com/content/print/٢٤٠٥٣٨.html

- غالبًا- للمُنَاسبَة التي كُتب فيها، ويُسمى أحيانًا «حسـابَ الجُمَّـل» أو التّأريخ بالحـروف، وتقومُ هذه الطريقةُ على التّرتيبِ الأصليِّ لحُروفِ الهِجاءِ، وهـذا غيرُ التّرتيـبِ (الألفبائـيِّ) الذي نَسـتعملُه اليومَ»[٢].

يرى إميل بديع يعقوب أنّ «التَّأرِيخ بالشِّـعْر»، هو لون بديعي، نشأ على الأرجح، في أواخر العصر العَبَّـاسِيّ، وذلك بأنْ يَضعَ الشّـاعِر في آخرِ أبياتِهِ، عـادة، وبعـد كلمـة «أرّخ»، أو أحدِ اشـتقاقاتها غالبا، كلماتٍ إذا حُسـبتْ بحِسـابِ الجُمَّل، تَكوَّنَ منها تاريخُ المُنَاسَـبَة التي يعنيهـا، (وَفَاة، ولادة، زَواج، بِنـاء، تَولّي، خِلافـة، ...)[٣] ويَعدُّ مُصطَفَى صـادق الرّافعيّ (التَّأرِيخ بالشِّـعْر) فَنًّا شِـعرِيًّا متأخّرًا، مع اتفاقٍ في المَفهومِ مع سـابقيه، فيقولُ: «ويُسـمّونَه التّأرِيخَ الحَرفيَّ أيضًا، لأنَّ المَرجِعَ فيه إلى حِسـابِ الأحرفِ الأبجديَّة، ولا يُعرَفُ بالتَّعيينِ أولُ من اسـتعمَلَهُ في الشّعر، وقد ذَكَرَ بعضُهم أنَّه كان مُسـتَعمَلًا في الجاهليَّة الأولى عندَ شُـعرائِها، وهو وهم »[٤].

ب- تأريـخُ «التَّأرِيـخ بالشِّـعْر» وجذورهُ في الأدَبِ العَرَبيّ:

يَرى بعضُ الدّارسين «أن هذا الفَنّ ليس حِكرًا على الأدب العَرَبيّ فحسـبْ، بل وُجِد في الأدبِ الفَارسيّ والهنـديّ والتُّركـيّ»[٥]، واختلـفَ مُؤرخـو الأدبِ العَرَبيّ في تاريخ ظهور فَنّ «التَّأرِيخ بالشِّعْر»[*]، واسـتأنفَ «الرّافعيّ» الحكمَ النّقـدِيَّ الذي يُرجعُ تاريخَ ظهـورِ هذا الفَنّ إلى العَـصرِ الجَاهليّ؛ كما

(٢)طـه وادي، الشِّـعْر والشُّـعَرَاء المجهولـون في القـرن التاسع عشر،دار المعارف،مصر ١٩٩٢،ص١٢١.

(٣) إميـل بديع يعقوب، المعجـم المفصل في علم العروض والقافيـة وفنـون الشـعر، ط١، دار الكتـب العلميـة، بيروت،١٩٩١، ص٣١٨.

(٤) مصطفى صادق الرّافعيّ،تاريـخ آداب العَرَب (ج٢) راجعـه وضبطـه عبد الله المنشـاوي ومهـدي البحقيري، مكتبة الإيمان،القاهرة، (دت)، ص٣٣٩.

(٥) طارق فايز العجاوى، تاريخ التأريخ في الشِّعْر العَرَبيّ، موقع دنيـا الوطـن،.https،//pulpit.alwatanvoice html.٢٤٠٥٣٨/com/content/print

تاريـخ النـشر، ٢١/١٠/٢٠١١م (اطلعـت عليـه يوم، ٢٧/٠٤/٢٠٢٠م)

(*) التأريـخ كان يكتب خصّيصـا للقبر والضريح ونادرًا جـدًا مـا يُقتطعُ من قصيـدةِ رثاء، ولا تـكاد تخلو رثائيَّة مـن تأريخ وإن لم تكنْ منقوشـةً على القبر، وقد اشـترطَ أصحـابُ هذا القاعـدةِ شروطًا لضبطهِ وحُسـنِ موضعِه، ومنها، ألّا يكونَ في بيتين بل في بيتٍ واحدٍ، ويُستَحسـنُ أنْ يكونَ في الشَّـطرِ الثّاني أو جزء منه، كما تُحسب الحُروف على صورتها دون مراعاة لفظِها، فالحُرف المُشـدَّد حرفٌ واحـد، وما يُنطـقُ ألفًا (حتّى ولو كُتبَ ياءً) يُحسـبُ ألفًا، والهَمـزةُ التي لا كرسيَّ لها، وألفُ الإطـلاقِ، وألفُ الوَصلِ التـي لا تُنطقُ، كل هذهِ حروفٌ لا تدخل في الحِسـابِ، كما استَحسـنَ الباحثون أنْ تشـتملَ جملةُ التاريـخِ على نكتةٍ أدبيّـة، أو حِكمـةٍ أو فكاهـةٍ، أو تكونَ على الأقـلِ مؤتلفةَ المعنـى خاليةً من كلّ هجنة، واعتمد الشُّـعَرَاء المسـلمون على التاريخ الهجري أساسا لنظمهم، في حين اعتمد بعض الشُّعَرَاء المَسـيحيين التَّاريخَ الميلاديَّ أساسًا لذلك (طارق فايز العجـاوي)، هناكَ مَن يـؤرخُ بالتاريخـينِ؛ الميلاديِّ والهجـريّ معًا في البيتِ الأخير، فالصَّـدر للتّاريخِ الميلادي والعَجُـزُ للهِجـريِّ، كما فعل الشـاعرُ المَسـيحيُّ عبدُ الله فريجن، (وهي قمةُ التَّعايش الشِعرِيّ التاريخيّ الإنسانيّ بين المَسيحيين وبين المُسلمين) طه وادي، الشِّعْر والشُّعَرَاء المَجهولونَ في القرنِ التَّاسع عشر، ص١٢١.

أنَّه يُرجِّح أنَّ أوَّل بيتٍ شِعرِيّ استُعمِل للتّأريخِ هو ما جاء في تأريخِ «فتحِ القُسطَنطِينيَّة» من طرفِ السّلطان مُحَمَّد سنة (٨٥٧هـ) وأنّ لفظة (آخرون) في هذا البيت هي «التَّأرِيخ»، فيقول الرّافعي: « وعندي أن هذا كان منشأ التّأرِيخ في الشّعْر» والبيت الشّعرِيّ هو: رام أمرَ الفتح قومٌ أوّلون حازه بالنصر قومٌ (آخِرون) ،[٦] ولمْ يتّفقْ الباحثون الذين تَناولوا هذه الصّورة من صور الأدب العَرَبيّ -على قلّتِهم - على تَحديدِ زَمنِ ظهورِ هذا الفَنّ الشّعرِيّ، ولكنّ بعضَ المُهتَمّين أرجعَ هذا الفَنّ إلى أوائلِ القَرنِ العَاشرِ للهجرَةِ واعتبروهُ من مُحدَثات ومَستجدّاتِ العُصورِ الأخيرة» [٧] ، كما « يصحُّ أنْ نُسمّيَ القرنَ التّاسعَ عشرَ قرنَ التّأرِيخ شعرًا (...) ولكنّ ابنَ دُريدٍ يَقولُ: وما أحسَبُهُ عَرَبِيًّا، أمّا الزّمخشريُّ فاعترفَ بهِ في «أساسِ بلاغَتِه»[٨].

استُخدم التّأرِيخ بالشِّعْر في مناسبات مختلفة، وقد «توسَّعَ بعض الشّعَرَاء كثيرًا في استعمالِ هذا المُحسّن البديعيّ، فكانوا يُؤرّخونَ به لمولدِ طفلٍ، أو حفلِ ختانٍ، أو إنشاءِ دارٍ، أو ذِكر سَنة المَدح أو الوَفاةِ أو التّهنئةِ»[٩] ، كما أرّخوا بهِ لِلِقَاء أو لِفراق، أو لعودةٍ من سَفَر أو رحلةٍ سِياحيَّة، أو لزيارةِ صديقٍ أو حاكمٍ، أو لطبعِ كتابٍ وحتّى لتَقريظِهِ، وأرَّخوا به للتَّعيينات في المَناصبِ والوظائفِ، وتَنوَّعتْ التّواريخُ بين المُناسباتِ الوَطنيَّة والدينيّة والثَّقافيّة والشَخصِيّة، كما مَسَّ هذا الفَنّ/ التّأرِيخ: الوفاةَ، والميلادَ وبناءَ المَساجدِ والكَنائسِ، والتَّخرّجَ والزَّواجَ، وتاريخَ إطلاقِ اللِّحى، وأرّخ الشّعَرَاءُ أيضًا للبِناءِ والتَّشييدِ كبناءِ بيتٍ أو خَزَّانِ ماءٍ(*).

من الشّعَرَاءِ الذين اشتُهروا في فَنّ التّأرِيخ الشّعرِيّ: ناصيفُ اليَازَجيّ، وعبدُ الله فُريج، وعبدُ

(٦) مصطفى صادق الرّافعي، تاريخ آداب العَرَب، ص٣٤٠.

(٧) طارق فايز العجاوى، تاريخ التأريخ في الشِّعْر العَرَبيّ(د ص).

(٨) مارون عبود، رواد النهضة الحديثة، ط١، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة،٢٠١٣، ص٤١.

(٩) طه وادي، الشِّعْر والشُّعَرَاء المجهولون في القرن التاسع عشر،ص ١٢٣.

(*)"أما بخصوص كيفية استخدام هذه الطريقة في تأريخ الحوادث يمكن إجمالها بالتالي،

تحسب الحروف الأبجدية في اللغة العَرَبيّة بحساب الأرقام، يجمعون أحرفاً مجموعة جملها يساوي تاريخ الحادثة وله معنى يتفق معها، والحروف الأبجدية هي، (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ) .و حسابها بالأرقام يكون ((أبجد هوز حطي)) تعد من ١_١٠ فيكون الألف رقم ١ والباء ٢.....الياء١٠)،بعد ذلك يبدأ العد بالعشرات عشرة عشرة (كلمن) = الكاف ٢٠ واللام ٣٠ ....و النون ٥٠ .والعدّ في (س ع ف ص) تصبح فيه السّين =٦٠ والعين ٧٠ ....و الصّاد ٩٠ .وفي (قرشت) القاف =١٠٠ وبعد ذلك يبدأ العد بالمئات في (قرشت) القاف =١٠٠ والرّاء ٢٠٠ والشين ٣٠٠ والتاء المبسوطة ٤٠٠ والثّاء في أول كلمة من (ثخذ) = ٥٠٠ والخاء ٦٠٠ والذال ٧٠٠ وأما (ضظغ) فتصبح الضاد = ٨٠٠ والظاء ٩٠٠ والغين ١٠٠٠ وهنا تنتهي الأرقام .إذن عند التأريخ لحادثةٍ ما علينا جمع الحروف (أب ج ده وزح ط ١-٩) (يكلمنسعفص ١٠-٩٠) (قرشتثخذضظغ١٠٠-١٠٠٠) .ينظر، طارق فايز العجاوى، تاريخ التأريخ في الشِّعْر العَرَبيّ.(د ص) .

اللهِ فِكري، ووردةُ اليَازَجيّ، وإسماعيلُ الخَشَّابُ، وعـليّ الدّرويشُ، وصالحُ مجدي، ومُحَمَّد شـهاب الدّيـن، ورفاعـة الطهطاويُّ، وإبراهيـم مرزوق، وعـلي الليثيُّ، وحسـنُ العَطَّـار، ومُحَمَّـد عثمان جلال، وإبراهيـمُ اليَازَجيّ، ونقولا التّرك، والطيبُ الرّياحـيّ، وإبراهيـمُ الأحـدب، وبطـرس كرامة، ومريانا مراش الحَلبيَّة، وعبدُ اللهِ النّديم، وحَسـن حُسـني الطُّويرانيّ، ومحمود صفوت السّاعاتيّ، وعليّ أبو النّصر ...وغيرُهم.

ت - التّأرِيـخ بالشِّـعْر عـلى شـواهدِ القُبُور والأضْرِحَة:

يَبدأ التّأرِيخُ الشّعرِيّ بعْدَ لفظٍ دالٍّ على التّأرِيخِ ومُشـتقَّاتِه مثل: أرّخْ، أرِّخُوا، أرَّخـتُ، مُؤرّخًا...، ومـن ذلك مـا وَرَدَ على ضريـحِ (جانفـزا خانم) زوجـةِ مُحَمَّد خورشـيد باشـا (ت١٢٧٦هـ)، في عَجُزِ البيتِ الأخيرِ بعد لفظةِ (أرّختْ):

لمّـا أحـاط بجـانفزا
جيـشُ الـرّدى ولهـا غـزا
وسـطا عليهـا بغتةً
و نضـا الصّوارمَ واعتزى
وبكى العفافُ لفقدهـا
وشـكا وقدْ عِيل الـعَزا
والحورُ قد قالت لهـا:
بشـراكِ فـي دار الجزا
ولهـا هنالـك أرّختْ
(بـالخلد زينةُ جنفزا) [١٠]

وَوَرَدَ التّأرِيـخُ بعـد لفـظِ (مُؤرِّخًا) على ضريح امرأة تُدعى (سُلُم) (ت ١٢٧١):

فالفوزُ أنشدَهَا يقولُ مُؤرّخًا:
سُلُمٌ هنا فَرحتْ بدارِ النّطقِ[١١]

وردَ التّأرِيـخ مقدَّمًـا بجملـةٍ صريحة في صدر البيت الأخير ليُحسب في عجُزه على ضريح «عثمان أفندي» (ت ١٢٤٧هـ)

فانظرْ تجدْ التّأرِيخ بَدا
عثمانُ رفيقي في الجنّة [١٢]

تتجـلى قيمةُ «نَسَـق الخُلـود» في التّقنّع بقناعِ «التَاريخِـيّ» من خلال الاشـتغال الشّـعرِيّ على فَنّ «التَّأرِيخ بالشِّـعْر» وذلـك لحفظِ الذاكرةِ من الاندثارِ، وبثِّ روحِ الخلـودِ فيها، فيحْيي التّأرِيخ -كما يحيي أسماءَ المَوتَى- وهو رميم.

يخلّد التّأرِيخ بالشِّـعْر أسماءَ المَوتَى (أصحابِ الشّواهدِ القَبْرِيّة) وذلك بِذِكْرِ الشّعَرَاءِ أسماءَ المَوتَى في عجُزِ البيتِ الأخير، الذي يتضمَّنُ التّأرِيخ، إلا ما نَدَر وشـذَّ عـن القاعدةِ، ومن أمثلـة ذلك ما نُقش من شـعرِ ناصيفِ اليَازَجـيّ على ضريحِ «أنطوان مطر» (ت ١٨٣٨م):

يا درةً أرّخوا وافى بها مطـرٌ
كذلك الدّرُّ منسوبٌ إلى المطر[١٣] .

جَـرَتْ عادةُ التّأرِيخ بالشِّـعْر، أن يُذكَر المؤرِّخ للمتوفى؛ والـذي قد يكون: اللـه، الملائكة، جبريل، روح القدس، الحور، الشّـاعِر، النّوادب وغير ذلك، فأما عند الشّاعِر مُحَمَّد شهاب الدّين، فالحور هي

(١٠) صالـح مجدي بك، الدّيـوَان، ط١، المطبعة الأميريّة، بولاق، مصر، ١٨٨٩، ص١٩٥.

(١١) المصدر نُفسه، ص٢٩٩ .

(١٢) مُحَمَّد شهاب الدين المصري، الدّيوَان، مطبعة السّيد مُحَمَّد جاهين مصر، ١٩٠٩،ص٢٤٤.

(١٣) ناصيف اليَازَجِيّ، الدّيوَان، ص١٠٦.

المؤرِّخ، وقد خُلّد المؤرَّخ له في الجنة:

والـــحورُ الآنَ مؤرِّخـــةٌ

عثمانُ توجّه في الجنّة(١٤)

ويؤرّخ (جبريلُ) على ضريح «يوســف ســيور» (ت ١٨٥١) إذ:

نادى به جبريلُ في تأريخهِ

إنّي بشيرٌ لا تخف يا يوسفُ(١٥)

وتتكفّـل الشّـاعِرةُ وردة اليَازَجـيّ بالتَّأرِيـخ الشّخصِيّ في:

في مضجعٍ أرّخوه قد كتبتُ له

يا قبرَ أيوبَ يسقيك النّدى سحر(١٦)

مثلمـا قد يتكفَّلُ زائـرُ القبرِ بالتَّأرِيـخِ للميّت، كمـا وَرَدَ عـلى ضريحِ «يُوسـف سـاروفيم» (ت ١٨٦٣م):

في مضجعٍ قال بالتَّأرِيخ زائره

في الملك عادةُ قسطنطينَ قد سَبقتْ(١٧)

تبـيّنَ لنـا في هـذا المَبحَـث، اشـتغالُ «نَسَـق الخُلـود» مقنّعًا بالتَاريخِيّ: شَـخصِيّاتٍ، وأحداثا وتواريـخَ، وأسـماءَ للمَوتى، وقـد بَدا لنـا القناعُ التّاريخِـيُّ مُتسـتّرا على هـذا التّـوق إلى الخلودِ – نَسَقًا مُضمَرا- وعَكَسَ هذا الفَنُّ الشّعرِيُّ الطارئُ المهجورُ (التَّأرِيخُ بالشِّعْر) آلياتِ اشتغالِ الأنساقِ وتقنّعِها.

ث- النّبـوّةُ نَسَـقًا شِـعرِيًّا - حـوارُ الأديـان والتعايشُ الإنسَانِيّ الخالد.

ما مَغزى توظيفُ «الدّينيّ» شِعرِيّا؟ وما القيمةُ المُضافَة في ذلك (في الشّعْر الشّاهديّ تَحديدًا)؟ وما الغايـةُ من التّعالقِ الشّـعرِيّ برموزٍ دينيّةٍ، ومنها النّبـوةُ والأنبيـاءُ؟ أليسَ الخلـودُ أحدَ أبـرزِ هذهِ الغايات؟ كيف جسّـدَ شـعرُ القُبُور الخلودَ ذِكرًا ومناشـدةً وحلمًا ورجاءً ودعـاءً؟ لمَ لمْ يكُد يخلو شـاهدٌ شِـعرِيّ من ذِكر لفظة (الخلود) أو إحدى مشتقاتها؟

اسـتدعى الشّـعَرَاء في نصوصِهـم الشّـاهديّةِ شَـخصِيّاتٍ دينيةً مُقدّسـة، يتعلقُ جلُّهـا بالنّبوّةِ والأنبيـاءِ، وكان اسـتدعاءً لصفاتِهـا وأفعالِهـا وأسـمائِها، واتَّخذَ الشّـعَرَاءُ من النّبـوةِ والأنبياءِ أبوابًا مُتفرقة دَخلوا خلالَها مُدنَ الخلودِ المنشـودِ، واقترنـتْ أسـماءُ الأمواتِ بأسـماءِ الأنبيـاءِ، وبدا القربُ والجلوسُ والمكـوثُ في حِمَى الأنبياءِ أمانيَّ ورغبـاتٍ وتوقًا شـديدًا، لأنّ تلكَ الاسـتحضاراتِ والاسـتدعاءاتِ والإشـاراتِ والالتفاتـاتِ «تُضفي بُعـدا عُلويا عـلى الخِطابِ الشّـعرِيّ، وبها تتحدّدُ علاقـةُ الإنسـانِ بالخالـقِ، أو علاقـةُ الإنسـانِ بالإنسـانِ، وفق منهج سـماوي ينهض على أسس الخير والحرية، أو يستثير الهمم للبذل والتضحية والعطـاء» (١٨) ، كمـا أنّ « الشّـاعِر عندمـا يَخلقُ

(١٤) مُحَمَّد شهاب الدين، الدّيوَان، ص٢٥٢.

(١٥) ناصيف اليَازَجِيّ، نفسه، ص١١٥.

(١٦) وردة اليَازَجِيّ، حدائق الورد، ط٢، مطبعة القدّيس جاورجيوس، بيروت، ١٨٨٧م،ص١٧.

(١٧) ناصيف اليَازَجِيّ، الدّيوَان، ص١٣٣.

(١٨) إبراهيم نمر موسى،آفاق الرّؤيا الشِـعريّة – دراسات في أنـواع التَّناصّ في الشِّـعْر الفلسـطيني المُعَـاصِر، ط١، وزارة الثّقافـة، الهيئـة العامـة للكتـاب،رام الله، ٢٠٠٥. ص٧٠.

شَــخصِيّة أو يَســتدعيها تُصبحُ تلكَ الشّــخصِيّةُ مُســتقرَّ جميــعِ الحَــرَكاتِ والأفعالِ، إنَّــهُ يَختبئ وراءَها فتصبحُ بمثابةِ نافذةٍ يُطلُّ من خلالِها على العالَم»[١٩]، ويُمكنُنا أنْ نَعُدّ تلكَ المُستحضراتِ من الشّــخصِيّات أقنعةً آمنةً لأنساقٍ مُتفرّعة، تختلفُ باختلافِ مقصد الخطابِ الخَفيّ للأنســاق، وهي أقنعــةٌ مانعــةٌ من ظهــور النَسَــق بعــد ضُمور، ومانحةٌ للنَسَق نفْسِه القدرةَ على الاشتغالِ الخَفيّ، مثلما تمنحُ شــحناتٍ من القداسةِ، ودفقًا عاطفيًّا دينيًّــا يُواكب الدّفقَ الشّــعوريَّ بالفقــدِ والخوفِ مــن الفَنّاءِ والرَّهبةِ من المــوتِ، بوصف هذا الدّفق معــادلًا شــعوريًّا للرَّغبةِ في الخلــودِ، في عناقٍ بين النّســقيّ العميق وقناعِه الجَمَاليّ الظاهرِ، المُتجلّي في هذا الاســتحضارِ التَّنــاصّيّ الرّمزيّ الشّــعرِيّ، لأنّ حــوارَ النّصُوصِ الحاضرةِ مع الغائبةِ جَمَالِيّةٌ مــن جَمَالِيّاتِ التّخاطُبِ الشّــعرِيّ، بمــا فيها من « قَداســةٍ مُحمَّلــةٍ بكــمٍ هائــلٍ مــن التّداعيــات والشــحنات العاطفية التي تســتدعيها وتثيرها في جســد النّص، فتَكون منعكســاتٍ شرطيةً جَمَالِيّةً فنيةً في نفس المتلقي، تعمّق إحساسَــه بالقصيدة وبالإشــعاعات المنبعثــة منها» [٢٠]، ومــن الأنبياء والمرســلين، والشَــخصِيّاتِ الدّينية المقدَّســة التي استدعاها الشّعَرَاء في الكتابات والنُّقوش الشّعرِيّة على شواهدِ القُبُور والأضْرِحَة: المَسيحُ عيسى وأمُّه مريــم عليهما الصّلاة والسَّــلام، وإبراهيم وموسى ويعقوب ويوســف وأيوب ويونس ومُحَمَّد عليهم الصّلاة والســلام جميعًــا، فهذا عــمُّ (المُصطَفَى) يختــار إلى جواره «مُحَمَّــد المُنتظر» كما نُقشَ على ضريحِه من شِعر صالح مجدي بك:

هذا ضريحُ النّقشبنديُّ الذي
هو في التّقى بيْن البريّة أوْحدُ
واختاره العبّاسُ عمُّ المُصطَفَى
جــارًا بقُبّتِه فطــابَ المَرقدُ
والبدرُ في سلخ المحرَّم أرّختْ
للبدر عباسٍ أضاءَ مُحَمَّد[٢١]

قَــرَنَ الشّــاعِرُ عمر أنسي بــين المُتوفَّى المدفونِ قــرْب ميناءِ للصّيد، وقد كان صيّــادًا (عبد القادر بن خرشــوم) وبين ســيّدنا نوحٍ وقصةِ السّفينة، في محاولةٍ لاســتحضارِ فعْلِ النّبوّةِ (الاشتغال على السّــفن) والرّبط بــين المُتوَفَّى وبــين النّبيّ (نوح)، ليخلدَ ذِكرُ الأوّل ما خَلُدَ ذِكرُ الثّاني، في اســتدعاء (قناعٍ) تناصّيٍّ بديعٍ، تَغمرُ فيه صفاتُ النّبوَّةُ المَيتَ فتَرتَسمُ شَاهدًا شِعرِيًّا على قبره:

ضريحُ ابنِ خرشومٍ سفينةُ سائرٍ
بــأبحُرِ فضلِ اللهِ في أنجحِ القَصدِ
جرَتْ ورياحُ الشّوقِ دَعوةُ قــادرٍ
إلــى عبدهِ والــفوزُ تلبيةُ العَبدِ
أقام شراعَ العَزمِ في أبحُرِ الهُدى
وألقى مراسيَ الحزمِ في ساحلِ الرّشدِ
وما خاضَ إلا لُجَّةَ العَفوِ والرّضَى

(١٩) مُحَمَّــد لطفــي اليوســفي، تجليات في بنية الشِّــعْر العَرَبيّ المُعَاصِر، سراس للنشر، تونس، ١٩٨٥، ص١٣٨.

(٢٠) خــضر مُحَمَّــد أبــو جحجوح، التشــكيل الجمــاليّ في شِــعرِ سَــميحِ القاسِــم، ط١، مَكتبــةُ كلّ شيء، حيفــا، ٢٠١٢،ص١٠٦.

(٢١) صالح مجدي بك، الدّيوَان، ص٧٦.

(٢٢) عمــر أنسي، المورد العذب، جمعه .عبد الرّحمن أنسي طبيب، المطبعة العمومية، بيروت ١٨٩٨، ص ١٠٦.

وما حلّ أرِّخْ في سِوى جَنَّةِ الخُلْدِ [٢٢]

ينحت الشّاعِر أبو البحر الخطي من «عروج» النّبي مُحَمَّد (ﷺ) و «رفْعِ»سيدنا عيسى (عليه السّلام)، إلى السّماء، قناعا دينيًّا خالصًا قوامُه (النبوّة) مَعبَرًا جَمَالِيّا لنَسَقِ (الخُلود) في السّماء، الذي يَنشده الشّعَرَاءُ للأمواتِ وللنَّصِّ الشّاهدِ أيضًا، كما وَرَدَ فيما نُقشَ من شعرهِ على ضريحِ «الشريف أبو جعفر عبد الرّؤوف »:

لَعَمرُكَ ما وارَوهُ في التّربِ إنّه

تقاصر عن حدّ العروجِ إلى الأفقِ

ولكنَّه الطَّودُ الذي لو يَزولُ عن

مراسيهِ مَادَتْ هذه الأرضُ بالخلقِ[٢٣]

يدعو الشّاعِرُ ناصيفُ اليَازَجيّ أهلَ الميتِ إلى الكفّ عن البُكاءِ، إذْ صار فقيدُهم إلى جوارِ المَسيحِ (عليهِ السّلام) وتَحقَّقَ له الخلودُ المَنشود، كما جاءَ مَنقوشًا على ضريحِ «حبيبِ الدّهان»(ت ١٨٤٥م):

أمسى حَبيبُ اللهِ في فِردَوسِهِ

فادعُوا بني الدّهّان أنْ يَدَعوا البكا

لقدِ اتكأتَ مُؤرخًا في عرشِه

يا مَنْ على صَدرِ المَسيحِ قدِ اتّكا [٢٤]

يتقاسم المَوتَى والأنبياءُ قداسةَ الأسماءِ، ويَربطُ شُعراءُ القُبُورِ بين الأسماءِ تلك، بخيطٍ دلاليٍّ يجمعُ بين الفريقينِ في استحضاراتٍ تناصّيّة بديعة، فهذا الفَقيدُ موسى بسترس (ت ١٨٥٠م) إذْ يُجاورُ النّبيَّ عيسى (عليهِ السّلام) وسينظرُ وجهَ اللهِ، ويطلبُهُ كما طلبَ رؤيةَ وجهِ الله (النبيُّ موسى عليه السّلام):

تُعْزى إلى بِسْترِسْ يا ركنَ عُصبَتِه

وأنتَ أفضلُ من يُعزى إلى عِيسى

سعيت لله أيامًا مؤرّخةً

واليومَ تنظرُ وجهَ اللهِ يا مُوسى[٢٥]

تُعدّ شَخصِيّةُ النّبي يوسف (عليه السّلام) من أكثر الشّخصِيّات الدّينية حضورًا في المَتنِ الشّعرِيّ الشّاهديّ، وقناعًا ذا مَقدرةٍ كُبرى على مَنح الأنساقِ حُريتَها في الاشتغالِ داخلَ النّصّ، وعلى منعِها من ابتذالِ الظهور، لما تتضمّنُهُ قصةُ سيدنا النّبيّ من تفاصيلَ مُثيرةٍ ومُنعَرَجاتٍ حياتيَّة شَديدة العُمق الدّلاليّ، و «تبدو قصّة يوسفَ أكثر نزوعًا إلى ما هو إنسَانِيّ، وأقربَ إلى ذاتيَّةِ الشّاعِر، ناهيكَ عمَّا تَميَّزتْ به سورةُ يوسفَ من خَصائِصَ فنّية جعلتْ منها مركزَ اهتمامٍ مكثف من المُبدعين عمومًا والشُّعَرَاء على وجه الخُصوص»[٢٦] ، كما أنّ سورة يوسفَ « عابرةٌ للعوالم والبشرِ والأزمنةِ والأمكنةِ، ومن ثمّ سيكونُ هناكَ مُشتركٌ بينَ مَن يَتلقّاهَا»[٢٧] لدى البَشريَّة جَمعاءَ، على اختلافِ الدّياناتِ والأعراقِ، وإنّ هذا المُشتَرَك هو البُعدُ الإنسَانِيّ الذي قالَه النّصُّ وانطبعَ على الإنسَانِيّة في اختلافِ الدّياناتِ، ودليلُ ذلك أنّ الشّعَرَاء المسيحيين كتَبوها على قبور المُسلمين، بحسٍّ

(٢٣) أبو البحر الخطي، الدّيوَان، علق عليه وأخرجه. علي بن الحسين الهاشمي، مطبعة الحيدري طهران،١٩٠١، ص٧٩.

(٢٤) ناصيف اليَازَجِيّ،الدّيوَان،ص١٠٨.

(٢٥) المصدر نُفسه ن ص١١٠.

(٢٦) حياة الخياري، النبوة من القرآن إلى الشعر- إعادة ترتيب العالم رمزا، ط١، روافد للنشر والتوزيع،القاهرة، ٢٠١٩ م، ص٩٩.

(٢٧) أحمد الشهاوي، لا تحزن عليهم- الذهاب إلى يوسف، مَجَلَّة (دبي الثّقافية)، أفريل ٢٠٠٩،ص٢٢.

إنسَــانِيّ كبير، وبتعايش شِــعرِيّ واعٍ على شواهدِ القُبُــورِ والأضْرِحَــة. كمــا كتبَ الشّــاعِر ناصيف اليَازَجــيّ عــلى ضريــح «يوســف العســيليّ »(ت ١٨٤٧م):

هذا العسيليُّ الذي نَزَلَ الثّرى

كالغُصنِ من حُمر المَنايَا يُقصفُ

ومسطّرُ التّأرِيخ أنشدَ حولَه

هذا قميصُك شاهدٌ يا يوسفُ[٢٨]

تَســتَدعي الشّــاعِرةُ مريانــا مَــرّاش الحَلبيّــة شَخصِيّةَ النّبي أيّوبَ (عليهِ السّلام)، لتعكسَ حالةَ الصّــبرِ (الأيّوبي) الأبديّ، وجِمــلَ المُكابدةِ الخالدةِ لأهلِ الفَقيدةِ، وقد كَتبتْ على ضريحِ امرأةٍ مُتوفَّاة:

هذي الغَزالةُ مُذْ نَأتْ عن أرضِنا

قدْ أشــرَقتْ في جنّة الأبرارِ

ويْحي لأهــلٍ نــالَهم بفراقِهــا

ما نال أيوبًا من الأكدار [٢٩]

حينَ نَقرأ -بعُمقٍ- الكتاباتِ والنقوشَ الشّعرِيّةَ العَرَبيّــةَ على شــواهدِ القُبُور والأضْرِحَة، لا ســيما شَــواهد قبورِ وأضْرِحَة النّســاء، نكتشفُ أنّ ذِكرَ الفقيــداتِ قد اقترنَ بذِكر السّــيدة مريــمَ (عليها السّــلام)؛ وبشرفِ مجاوَرَتِها في الجنّة، لما للسّيدة مريم - وهي أمُّ النّبي المســيح عليه السّــلام- من رمزيّةٍ تكادُ تبلغُ مَقامَ النّبوّة، وهي «التي أحصَنَتْ فرجَهــا فنفَخنَا فيها من روحِنــا وجَعلنَاهَا وابنَها آيــةً للعالمــين»[٣٠]، وهي التــي نفخَ فيهــا اللهُ من روحِــهِ وباركَها، «فدخلَ الملاكُ جبرائيلُ وقالَ لها: السلامُ لكِ أيّتُها المبارَكةُ المُمتلئةُ نعمةً، الرّبُّ معكِ، مباركةٌ أنتِ في النّساءِ»[٣١] ، مثلما وُصفتْ بالطُّهرِ والتَّبتّلِ في كثيرٍ من الشّواهدِ الشّعرِيّة القَبْرِيّة، وما صادف منها تطابقَ اســمِ المُتوفَّاةِ مع اسمِ السّيدةِ مريمَ (عليها السّــلام) كما وردَ على ضريحِ «مريمَ بنتِ بطرس يارد» (ت ١٨٦١م):

يا بنتَ بُطرسَ يارِدَ البكرَ التي

بــالطّهرِ حُقّ لهــا النّعيمُ الأعظــمُ

في العَرشِ مَحفلُكِ المؤرَّخُ طاهرٌ

نادى قد اجتمعتْ بِبُطرسَ مَريمُ [٣٢]

ارتبطت السّيدةُ مريم (عليها السّلام) في مخيالِنا الدّينــيّ والإنسَــانِيّ بالطُّهــرِ والطّاعــاتِ والمَكانةِ العَظيمةِ عندَ اللــه، لذلك كان مقامُها رغبةً وحلمًا وأمنيةً لكلّ مُتوفّاة، كما جاءَ منقوشًــا على ضريحِ «مرتا امرأةِ يوسفَ التّوينيّ» (ت ١٨٦٤م):

قامتْ بطاعةِ ربِّها فتَمَتّعتْ

بجَمــالِ فِردَوسِ النّعيمِ الأعظمِ

فأصاب تَاريخِي بمرتا أنَّها

نالتْ نَصيبًا صالحًا معْ مَريمِ[٣٣]

خاتمة:

نقــلَ إلينــا الشّــعْر الشّــاهديّ ذاك التّعايــشَ الشّعرِيّ الدّيني (بينَ المَسيحيّينَ والمُسلمينَ) نَسَقًا مُشكّلا لبنَى الشّواهدِ على الشّواهدِ، فقد كانَ بعضُ المُســلمينَ يكتبونَ على شواهدِ المَسيحيَينَ والعكسُ

(٢٨) ناصيف اليَازَجِيّ،الدّيوَان،ص١٠٩.

(٢٩) مريانا مراش الحلبية، الدّيوَان، ص١٩.

(٣٠) سورة الأنبياء، الآية ٩١.

(٣١) إ نجيل القديس لوقا، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨، الإصحاح الأول، ص ٣٢.

(٣٢) ناصيف اليَازَجِيّ،الدّيوَان،ص١٢٤.

(٣٣) المصدر نُفسه، ص١٣٥ .

صحيـح، و «ليسَ ثمَّة فارقٌ كبـيرٌ بين نصوصِها (الشَّـواهد المَسـيحيّة) وبـين نصـوصِ شـواهدِ القُبُورِ الإسـلاميّة، حتى إنَّنا لنَجدُ نفسَ العباراتِ الدّينيّة التي تُستفتَحُ بها شواهدُ المُسلمينَ كعبارة (سبحانَ الحيّ الباقي) وغيرها من العِباراتِ التي تُشـير إلى حُسـنِ عاقبةِ الخَير وسـوءِ عاقبةِ الشّرّ، وإنّ المـوتَ محتومٌ على كل حـيّ، والجنّة مقرُّ كلِّ بارٍّ والنارُ مقرُّ كلِّ فاجرٍ وهو نتاجُ التّأثرِ بالثقافةِ الإسـلاميّة السّـائدةِ مما ترتَّب عليهِ استعارةُ تلكَ العبارات»[٣٤] ، مع تسـجيلِ فرقٍ بسـيطٍ بينهما؛ فالشَّواهدُ الشّعريّة الإسلاميَّة عادةً ما تكونُ أقصرَ وأقلَّ حُزنًا وفقْدًا من الشّواهِدِ الشّعريّة المَسيحيَّة.

المراجع

- إبراهيم نمر موسى:آفاق الرّؤيا الشّـعريّة - دراسـات في أنواع التَّناصّ في الشّـعْر الفلسطيني المُعَاصِر، ط١، وزارة الثّقافة، الهيئة العامة للكتاب،رام الله، ٢٠٠٥.
-أبـو البحر الخطي: الدّيـوَان، علق عليه وأخرجه. علي بن الحسين الهاشمي، مَطبَعَة الحيدري طهران،١٩٠١.
- إحسـان عبَّاس: اتّجاهاتُ الشّعْر العَرَبيّ المُعَاصِر، ط٣، دار الشّرق للنَّشر والتّوزيع، عمان، ٢٠٠١.
- أحمد الشّـهاويّ: لا تحزن عليهم- الذهاب إلى يوسـف، مَجَلَّة (دبي الثّقافيّة)، أفريل ٢٠٠٩.
- إميـل بديـع يعقوب: المُعجَـم المُفصّل في علـم العَروضِ والقافيـة وفنـون الشّـعر، ط١، دار الكتـب العلميـة، بيروت،١٩٩١.
- إنجيـل القديـس لوقـا، دار المَعَارِف، القاهـرة، ١٩٧٨، الإصحاح الأول.
- حيـاة الخيـاري: النّبوة من القـرآن إلى الشّـعر- إعادة ترتيب العالم رمـزا، ط١، روافد للنشر والتوزيع،القاهرة، ٢٠١٩
- خـضر مُحَمَّد أبو جحجوح: التّشـكيلُ الجَمَاليّ في شِـعر سميح القاسم، ط١، مكتبة كلّ شيء، حيفا، ٢٠١٢.
- صالـح مجـدي بـك: الدّيـوَان، ط١، المَطبَعَـة الأميرية، بولاق،مصر، ١٨٨٩.
- طه وادي: الشّـعْر والشُّعَرَاء المَجهولون في القَرنِ التّاسع عشر، دار المَعَارِف، مصر ١٩٩٢ .
- عمـر أنـسي: المورد العـذب، جمعه .عبـد الرّحمن أنسي طبيب، المَطبَعَة العمومية، بيروت ١٨٩٨.
- فـرج الحسـيني: تاريخ غزة في نهايـة العصر العثماني من خلال شـواهد القُبُور،مراجعة وتقديم قسم الدّراسات والنـشر والشـؤون الخارجيـة،ط١، مركز جمعـة الماجد للثقافة والتُّرَاث،دبي الإمارات العَرَبيّة المتحدة، ٢٠١٧.
- مـارون عبـود: رواد النّهضـة الحَدِيثة، ط١، مؤسسـة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة،٢٠١٣.
- مُحَمَّد شـهاب الدّين المـصري: الدّيوَان، مَطبَعَة السّـيد مُحَمَّد جاهين مصر، ١٩٠٩.
- مُحَمَّد لطفي اليوسـفي: تجليات في بنية الشّـعْر العَرَبيّ المُعَاصِر، سراس للنشر، تونس، ١٩٨٥.
- مُصطَفَـى صـادق الرّافعيّ: تاريـخ آداب العَرَب (ج٢) راجعـه وضبطَـهُ عبدُ الله المنشـاوي ومهـدي البحقيري، مكتبة الإيمان،القاهرة،(دت).
- مريانا مراش الحلبيّة: الدّيوَان، المَطبَعَة الأدَبِيّة، بيروت، ١٨٩٣.
- ناصيـف اليَازَجيّ: الدّيـوَان، المَطبَعَـة الأدَبِيّة، بيروت، ١٩٠٣.
- وردة اليَازَجـيّ: حدائـق الـورد، ط٢، مَطبَعَـة القدّيس جاورجيوس، بيروت، ١٨٨٧م .

(٣٤) فرج الحُسينيّ، تاريخُ غزةَ في نهايةِ العَصرِ العُثمانيّ من خلالِ شواهدِ القُبور، ص ٣٢٦.